

أدب الكاتب من ثنانيا أباطيل وأسما جمانة ثروت كتيبي



"ليس حسناً أن يعزلَ كاتبٌ قلمه! ولكن هكذا قدرَ اللهُ... فلما عُدتُ إليه أحملهُ، ثقلَ حملهُ، وقد صَدِي سِنَّهُ، ورَسَفَ في قيود الإهمال حَطَّوه، وإذْ هُوَ سحيقةُ القرارِ قد انخسفت بيني وبينه... ولكني على ذلك كله اليوم مُرغمٌ" ص21 هكذا بدأ شيخ العربية محمود شاعر - رحمه الله- أولى مقالاته المنشورة في كتاب (أباطيل وأسما)، الذي بحثتُ عنه طويلاً ثم لما وجدتهُ فاجأني بأن البداية بهذا الصدق! وبهذا الأدب الذي ينبغي أن ينته به إليه كل ذي قلم.

(أباطيل وأسما) هو كتابٌ يُحتذى به في الجمع بين أهمية الموضوع وجودة السبك والأسلوب. كتبه أبو فهر للدفاع عن الأمة العربية والإسلامية، فدافع عن الإسلام وعن العربية، وأبان في مواضع متعددة عن الرابط بينهما. وجاءت قضايا الكتاب متنوعة المحاور بحسب حديث الكاتب في مقالة كل أسبوع، فالكتاب جمعٌ لثلاث تلك المقالات، وما أنقص هذا من روعة الكتاب كوحدة موضوعية واحدة، ولا قلل من دهشة القارئ بحسن تناول الكاتب وجزالة عبارته شيئاً، فصاحبه مجيدٌ مُتقن لفن المقال، وقد أبان عن أهمية هذا الفن بقوله: "حاجة القراء إلى المقالة أشدُّ أحياناً من حاجتهم إلى الكتاب" ص251.

وبغض النظر عن قيمة الكتاب ووزنه الثقافي الكبير، فإنني متحدثٌ في هذا المقال عن سطور من كلام أبي فهر -رحمه الله- جاءت عرّضا في ثنانيا تناوله للقضايا التي تحدث عنها، وهي على عرّضيتها أسرتني -كما أسرتني مدخله السابق ذكره- فَعلمتُ عليها وأبرزتها هنا تحت عنوان (أدب الكاتب).

كل كاتب يعقدُ مع نفسه عقداً حُلُمياً، يطبقه في مكتوباته، وبخاصة نفسه وفقه.. ويبدأ قارئ (أباطيل وأسما) شيئاً من الحديث النفسي مصراً به في مقالات محمود شاعر، ويتقبله القارئ بغير كلفة يشعر بها، غير أنني هنا أستلها من سياقها وأفردها بالإبراز والتعليق؛ طلباً للاستفادة.

أولى الإبرازات التي نتلقها هي استشعار الكاتب لمسؤوليته العظيمة، فلا ينبغي له التدليس ولا التعميه على من أعطاه من وقته وسلم إليه عقله باعتبارها كتاباً يثق بمكتوبه، يقول أبو فهر: "ليس حسناً، بل معيباً أن يتخذ كاتبٌ قلمه أداةً لخداع القارئ عن عقله والتغريب به" ص43 ويفضل هذه المسؤولية في موضع أكثر بسطة فيقول: "وكل ناطقٍ بلسان أو كاتبٍ بقلم، فإنما هو مُعلم لمن يتلقى عنه. فإذا احتال، وغش، وخدع، وكذب، واجترأ على ما لا يحسن، وادّعى ما لم يكن، وحزّف الكلم عن مواضعه، وبدّل لفظاً بلفظٍ ليؤرّ باطلاً، فزوّق وحسن، وأخفى معالم الشبح فيه بالتدليس، وستر عواره ودمامته بالمخرقة والتعميه... فقد خرج بفعل ذلك عن أن يكون مُبيناً وكاتباً، إلى أن يكون دجالاً.." ص87 فتاركٌ الوضوح وسالكٌ سبيل التعميه، المُخفي لسيء النوايا والمُظهر لطيبها هو قريب من كونه دجالاً لا كاتباً جديراً بثقة الناس بكلامه! فما التدليس والتزوير إلا استهانة بالناس وإرادة العلو على أكتافهم.

وأكثر من أدب الوضوح فإن كاتبنا يُعلمنا أدباً آخر من خلال تصريحه عن قَبْدٍ من مبادئه، إذ يقول: "لم أحمل القلم منذ حملته، إلا وأنا مؤمن وأوثق إيمانٍ بأنني أحمل أمانةً، إما أن أؤديها على وجهها، وإما أن أحطم هذا القلم تحت قدمي بلا جزع عليه ولا على نفسي. وأبيت منذ عقلتُ أمري أن أجعله وسيلةً إلى طلب الصيت في الناس، أو ابتغاء الشهرة عندهم.." ص176-177 فالكاتب الحقيقي هو من يُراعي حق القلم، وأنه إذا كَتَبَ كَتَبَ يعلم وعدل، وبهذا يتحقق له حمل القلم بالقوة التي يستحقها. وفي الطرف الآخر فليس الكاتب من كان عرضه جني الشهرة بقلمه؛ فليست فضيته إحقاق حق أو إبطال باطل! فلا علم ولا عدل، وإنما هذرٌ أو تمويهٌ أو طبوليات؛ سعياً بهم نحو سراب الشهرة! فما هذا بمستشعر للأمانة!

ويتناسب مع حديثه عن مسؤولية القلم وحقه؛ ذكره لشجاعة التحمل والصمود إلى النهاية، وذلك بتقبل الكاتب للنقد المتوجه إلى مكتوبه، ولا يعتبر ذلك تجريباً لشخصه طالما أن النقد ذا صلٍ بمنطوقه وما يتفرع عن كلامه، ذا صلٍ بما تدل عليه سطورُه من صفات، فيقول: "ليس بتجريح للكاتب، إذا كانت (الصفات) التي يستحقها، مستخرجة من نفس كلامه، من نفس منطقته، من نفس تفكيره، من نفس ضميره، من نفس هدفه. وكل لفظ يتضمن (صفة) من صفاته، لا يمكن أن يعد (تجريباً)، إذا كان مأتاه من تحليل الكلام والأهداف، مهما بلغت هذه (الصفات) من القسوة، أو الغرابة، أو الاستنكار.." ص492 فالكاتب الحقيقي يتحمل ما يأتيه من دلالات سطورِه، فهو أساساً ما ابتدأ كتابتها إلا لحق يعتقد فيها، فلا يرمي التهم على من ينقده بأنه يُجرح شخصه، بل يقبل تبعات كلامه ويصبر على ما يأتيه منها.

ولعل هذا ما دفعني لاقتناص الأدب المتضمن في قوله: "إنني لأجده حقاً عليّ أن أفسر أشياء، أنا في نفسي غني عن تفسيرها لأحد. ولكن الكاتب معلقٌ بقارئه، فإذا أغفل أن يجعل قراءه على بيّنة من طريقه، كان خليفاً أن يصبح فيجد بينه وبينهم سداً مضرّواً، يعوقهم عن إدراك حقيقة ما يقول، أو يتركهم في اختلاف يقطعهم عن النفاذ إلى الغاية التي من أجلها يكتب ما يكتب.." ص485 فهو يختصر علينا الطريق ويُهدينا أدباً فاضلاً يريح الكتاب من عناء التأويلات المُجحفة التي قد تلحق بعض مكتوباتهم، فحق على الكاتب الحصيف أن يُغلق الباب، ويرحم الخلق من سوء الفهم والتأويل؛ وذلك بأن يُبين طريقه ويُفسر ما هو مظنة صعوبة الإدراك.

وما أعذب كلامه وهو يُعلم معاشر الكتاب -دون قصد منه- ألا يتلقفوا أقلامهم قبل أن يستوي عُودهم، وتستقر محاور الكلام نفوسهم، فقال بعقوبة الكاتب المُبين: "فأنا حين أنهى للكتابة، يخيل إليّ أن الموضوع قد استقرّ في نفسي واستوى، وأن الوجه قد استبان واستتبّت لي مذاهبه.." ص529 فنأخذ من هذا أنه ما ينبغي الكتابة في موضوع إلا بعد نضوجه في ذهن كاتبه، وتتبعه لجهاته المتفرقة.

ثم هذا التتبع واستفراغ الوسع، والحرص على حسن الإبانة، واستحضار الجديّة والمسؤولية، وفوق كل هذا: توطين النفس وتعويدها على تقبل النقد الحاصل من وراء المكتوب... كل هذا لا يُغفل الكاتب عن كونه أتياً بالأسباب أما التوفيق فسيبيله سؤال الله، وأن الكاتب لا يخلو من جوانب العجز مهما بدا سعيه للأسباب مثاليّاً! وما صرّح أبو فهر -رحمه الله- بمنطوقه بهذا، لكنه أدبٌ تحلى به؛ يلمس في قوله ختام إحدى مقالاته: "فإذا قصرت، فذلك المعهود من العجز، وإذا شارفت حدّ الإبانة، فيتوفيق الله وحده وتسدده.." ص181 مع أن عين القارئ لا

تُخطئ جُده المبدول في التتبع والإبانة!

خلاصة الآداب المستقاة من ثنانيا صنيع شيخ العربية محمود شاكر -رحمه الله- في كتابه الفدّ (أباطيل وأسما) والتي إن لم يوردها قصداً؛ لكن ما تنتهجه القاعة الشاكرية في كتابتها؛ يُنصح بالتزامه:
■ أن يستشعر الكاتب مسؤوليّة الكتابة والقلم فلا يخذع الناس، بل يحترم عقولهم وأوقاتهم.
■ أن يحرص على سلامة أفهام الناس، فيفسر لهم ما قد يُشكّل عليهم، فلا يضّر نفسه ولا يضّرهم.
■ أن يبذل أسبابه فيقرأ ويتتبع ويحاول الإحاطة بموضوعه، ثم لا ينفك عن سؤال الله التوفيق والسداد.

فمن تخلّق بهذه الآداب؛ فحينها فليخاطب نفسه: "ليس حسناً أن يعزلَ كاتبٌ قلمه!" فيشكر نعمة الله عليه -أن أعانه على جريان قلمه ومشاركة فكره- بدوام استخدامها في طاعته ومراضيه، فما أكثر الكتاب، غير أن الفروق ما بينهم كما بين السماء والأرض؛ فإذا عرفنا هذا؛ فلنلزم سبيل الموقّنين.

جمانة ثروت كتبي